مؤسس الدولة الهاشمية والمذهب الزيدى باليمن :

الإمام الهادى إلى الحق
يحيى بن الحسين

أرسل إلينا حضرة القاضى عبد الله الجرافى الصنعانى ، مندوب وزارة المعارف اليمنية بالقاهرة بعض المعلومات التاريخية عن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، فأحلناها إلى أحد محررى المجلة لاستيفائها وإعدادها للنشر ، فكتب ما يأتى :

أمر جذير بالنظر ، حقيق بالاعتبار ، أحب أن ألفت إليه أنظار الباحثين فى تاريخ المذهب الزيدى باليمن ، والدولة الهاشمية القائمة بالحكم فيه ، ذلك هو التآخى بين الناحية السياسية النظامية ، والناحية العلمية الدينية ، فكل من اتصل باليمن ، أو عرف شئونه عن كثب ، تبين له أن به قوتين تمشيان جنباً إلى جنب ، متآزرتين على إسعاد أهله ، وإعلاء شأنه ، والسير به قدماً فى طريق الرقى والتقدم على بصيرة وتثبت : قوة الدين ، وقوة السلطان .

لاشك أن للسلطان نفوذه البعيد فى الناس ، وتأثيره القوى فى استقامتهم على سنن الرشاد الاجتماعى ، والصلاح السياسى ، وعصمتهم من التردى فى وهاد الفتن ، والتخبط فى مزالق الأهواء والخلافات ، ولكن السلطان إذا استند فى ذلك إلى روح دينى يعمر القلوب ، ويكشف عن الحقائق أمام العقول ، فإن هذا الروح يكون خير معوان على الصلاح والإصلاح ، وتبادل الثقة والرضا بين الحاكمين والمحكومين ، كما يكون خير ميزان للنصفة والعدل ينزل على حكمه الناس مطمئنين .

وهذا ما تتميز به الدولة الهاشمية الزيدية منذ أسسها الهادى إلى الحق ، الإمام العالم المجاهد السياسى المفكر المصلح ، يحيى بن الحسين عليه السلام .

* * *

جمع هذا الإمام العظيم بين ناحيتى السيادة والعظمة ، فكان فى العلم والفقه والدين أمة ، وكان فى الرأى والسياسة والدهاء أمة ، ولا عجب فإنه فرع زكى من فروع تلك الدوحة العلوية المباركة التى أثمرت وما تزال ولن تزال إن شاء الله تعالى تثمر أطيب الثمرات ، وينتمى إليها أقوى الغصون والفروع .

هو الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، كان مولده بالمدينة المنورة فى سنة ٢٤٥ هـ ، وكانت وفاته سنة ٢٩٨ هـ ، فعاش حياته فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وهى فترة ازدهار البلاد الإسلامية بالعلم والفكر والتأليف والتصنيف ، كما أنها فترة احتراب المذاهب المختلفة من سياسية وفكرية .

كان يعيش فيها من العلماء أمثال محمد بن اسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج ومحمد بن يزيد بن ماجه ، وأبى داود السجستانى ، ومحمد بن عيسى الترمذى ، أصحاب السنن ، وأحمد بن سيار ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى الفقيه المالكى ، وداود بن على إمام أهل الظاهر ، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَرى صاحب المصنفات البديعة ، وجعفر بن محمد البلخى أستاذ عصره فى صناعة التنجيم ، وصاحب التصانيف المشهورة فيه ، كالمدخل والزيج والألوف وغيرها ، وأبى عبد الرحمن الأندلسى الحافظ الكبير ، وبقى بن مخلد صاحب المسند المبوب على الفقه الذى فضله ابن حزم على مسند الإمام أحمد بن حنبل ، والربيع المرادى صاحب الشافعى ، والبلاذرى المؤرخ المشهور ، وسيبويه أستاذ النحاة ، والمبرد إمام اللغة العربية وصاحب الكامل ، وابراهيم بن عبد الله بن مسلم الكجى ، الشيخ المعمر الذى يروى المؤرخون أن مجلسه كان يحضره خمسون ألفاً ممن معه محبرة ، سوى النظارة ، أى الذين ينظرون ولا يكتبون ، وأنه كان يستملى عليه سبعة مستملين متفرقين فى المواضع كلٌّ يبلغ صاحبه .

وكان يعيش فى هذه الفترة أيضاً من الزهاد وأئمة التصوف ، أمثال : سرى السقطى ، وأبى يزيد البسطامى ، وأحمد بن عيسى المكنى بأبى سعيد الخـرَّاز ، ومحمد بن عبد الله المعروف بأبى بكر الدقاق .

وعاش فيها كثير من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والنحل الصحيحة والباطلة ، وألسنة الدعوة إليها ، من أمثال محمد بن كرام ، والجاحظ ، وأحمد ابن خلاد مولى المعتصم ، وكان من دعاة المعتزلة ، وسليمان بن حفص صاحب بشر المريسى ، وعثمان بن سعيد الدارمى الذى رد على بشر هذا فيما ابتدعه من التأويل لمذهب الجهمية ، واسحاق ابن محمد بن أحمد بن أبان ، الذى تنسب إليـه الطائفة الاسحاقية من الشيعة المنقرضة ، والذى قيل إنه كان يعتقد إلهية على بن أبى طالب ، وأنه انتقل إلى الحسن ثم الحسين ، وأنه كان يظهر فى كل وقت .

وقد ظهر فى هذه الفترة أيضا كثير من الدعوات والوقعات السياسية والدينية كدعوة أبى الحسين يحيى بن عمر من ذريه الحسين بن على عليهم السلام ، الذى ظهر بالكوفة ، ودعا إلى الرضا من آل محمد ، وقوى أمره ، وتولاه أهل بغداد وأحبُّوه ثم آل أمره إلى أن استشهد وصلب وجيء برأسه إلى عبد الله بن طاهر ، فجعل الناس يهنئون عبد الله هذا بالفتح والظفر ، فدخل عليه أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى ، فقال له : أيها الأمير ، إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزى به ، ثم خرج يقول :

يا بنى طـاهر كُلوه وَبيئاً إن لحم النبى غيرُ مرِىِّ
إن وتراً يكون طالبَه اللـه لوترٌ نجاحه بالحرىِّ

وغير ذلك من الدعوات التى كان يقوم بها آل البيت عليهم السلام .

كما ظهرت الدعوات الفاسدة ، كدعوات : الباطنية ، والقرامطة ، والجرمية ، والبابكية . . وغيرها .

* * *

من هذا العرض المختصر للعلماء والمفكرين وأصحاب الدعوات ، الذين كانوا

يعاصرون الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، يتبين أن العصر كان عصراً مليئاً بالأحداث والفتن ، والعلوم والفنون والمذاهب ، فلم يكن من العجب أن تكتمل لهذا السيد الزكى أسباب المعرفة والبصر فى الناحيتين السياسية والعلمية على النحو الذى يرويه التاريخ عنه ، والذى يعد مفخرة من مفاخر المسلمين ، ونعمة أنعم الله بها عليهم عامة وعلى أهل اليمن خاصة .

فأما ناحيته العلمية ، فقد كان عليه السلام ذا نظر صائب ، وفكر ثاقب ، وعلم واسع ، ومعرفة لا تسامى ، يدل على ذلك مؤلفاته الكثيرة ، وتصانيفه المتنوعة فى كل فرع من فروع العلم ، ومن أهم ذلك كتابه الجامع فى الفقه الذى هو على نمط « الموطأ » للإمام مالك ، واسمه « الأحكام » أو « جامع الأحكام فى الحلال والحرام » وهو يذكر فيه اجتهاداته ووجوهها ، ويربط أكثر المسائل بالأدلة ، ويلتقى اسنادُه غالباً باسناد الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ويوافقه فى كثير من مسائل الفقه .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ومن مؤلفاته :

المسترشد فى التوحيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، ومسألة العلم والقدرة والإرادة والمشيئة ، والرد على محمد بن الحنفية ، والرد على المجبرة والقدرية ، والرد على أهل الزيغ من المشبهين ، وتفسير آية الكرسى ، والمنتخب فى الفقه ، وكتاب الرضاع ، وكتاب الديانة ، وإثبات النبوة ، وما نهى الله عنه رسول الله ، وكتاب الفنون ، والرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه ، وتثبيت الإمامة ، وتثبيت إمامة أمير المؤمنين على ، والقياس ، والتحرير ، والمواعظ ، وكتاب أخطاء الأنبياء ، وكتاب الجمل ، والبالغ والمدرك ، وتفسير معانى السنة ، وتفسير بعض أجزاء من القرآن الكريم ، وغير ذلك .

وبعض هذه الكتب توجد لها أصول محفوظة بالمتحف البريطانى ، وفى برلين وميونيخ ، والفاتيكان ، وغيرها .

ومن كلامه عليه السلام :

أصل الخشية لله العلم ، وفرع الخشية لله الورع ، وفرع الورع الدين ، ونظام الدين محاسبة المرء نفسه ، وآفة الورع تجويز المرء لنفسه الصغيرة من فعله ، وأصل التدبير التمييز ، وأصل التمييز الفكر ، ومن لم يَجُدْ فكرُه لم يَجُدْ تمييزُه ، ومن لم يجد تمييزه لم يستحكم تدبيره ، والعقل كمال الإنسان ، والتجربة لقاح العقل ، ومن لم ينتفع بتجربته لم ينتفع بما ركب فيه من عقله ، وشكر المنة زيادة فى النعمة ، والنعمة لاتتم لمن رزقها إلا بشكر موليها ، ومن أغفل شكر الإحسان فقد استدعى لنفسه العرفان ، ومن أراد ألا تفارقه نعم الله فلا يفارق شكر الله ، العلم والحكمة لا ينموان مع المعصية ، والجهل والحيرة لا يقيمان مع الطاعة ، ومن وُفق أمن من الزلل ، ومن خُذل لم يتم له عمل ، ولم يبلغ غاية من الأمل ، ومن قوى ناظرَ قلبه لم يضره ضعف بصره ، فإنها لا تعمى الأبصارُ ، ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور » .

ومن فقهه : ما رواه بعضهم من أن رجلا ادعى على آخر حقاً فى مجلسه عليه السلام ، فأنكر المدعى عليه وسأله البينة فأتى بها فحلَّف الشهود ، قال الراوى : فعجبت من ذلك ، فلما تفرق الناس دنوت منه فقلت : أيها الإمام : رأيتك حلفت الشهود ، قال : وما تنكر من هذا ؟ إنى أردت أن أحتاط ، وقد داخلنى فى هؤلاء الشهود بعض التهمة ، وهذا قول طاوس من التابعين ، وأصله قول الله عز وجل : « فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما » .

لا شك أن رجلا له هذا الأفق الواسع ، وتلك القدرة المحيطة بألوان العلم والتفكير جدير بأن يكون من أصحاب التوجيه ، وأعلام الهداية ، وأن تكون شخصيته ذات آثار بعيدة حيثما حل .

وهذا هو سر ما حفظه التاريخ من نجاح الإمام الهادى إلى الحق فى تأسيس الدولة الهاشمية والمذهب الزيدى فى اليمن على أساس من الحق والتقوى ، يجمع بين الحنكة والقوة والتجربة والعلم والدين .

كانت اليمن قبل هذا الإمام العظيم بلاداً قد امتلأت بالجور والقبائح ، وفشت بين أهلها أقوال أهل المذاهب الباطلة كالقرامطة والجبرية وغيرهم ، وكان أهلها متخاصمين متخاذلين ، لا تفتر من بينهم العداوات ، ولا تنطفىء نيران الأحقاد ، وقد خرج إليهم عليه السلام مرتين ، فأما المرة الأولى فكان خروجه سنة ٢٨٠ هـ حتى بلغ موضعاً يقال له الشرفة بالقرب من صنعاء ، فأذعن له الناس بالطاعة ، وأقام مدة يسيرة ، ثم خذله أهل البلاد ، وغلب عليهم العصيان لله ، والخذلان لإمامهم ، فعاد عليه السلام إلى الحجاز ، وعم أهل اليمن بعده البلاء المبين ، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الفوضى واتباع الأهواء ، والركون إلى أهل البدع ، والجدال فى الآراء ، فلما عضهم البلاء بنابه كتبوا إليه عليه السلام يعتذرون مما فعلوا ، ويبرءون إلى الله منه ، ويخبرونه بتوبتهم وحاجتهم إليه ، ويستنهضونه فى العودة إليهم ، فوصلت كتبهم إليه فى ذى القعدة سنة ٢٨٣ هـ ، فأزمع إجابتهم إلى ما طلبوا رغبة فى إحياء الدين ، وطمس آثار الضلال ، وخرج بشيعته وسادات أهله حتى انتهى إلى صعدة لستة أيام خلت من صفر سنة ٢٨٤ هـ ، وبينهم الفتن العظيمة ، فعمهم الصلح وأصبحوا بنعمة الله إخوانا (١) .

وقد نشر فى هذه البلاد السعيدة علمه ، وأورثهم الأئمة الصالحين من ذريته المباركة ، فهم أصحاب الدولة الشرعية القائمة على عواتق اليمنيين ورضاهم ، وقد سار على مذهبه ، وقلده فى اجتهاداته كثير من أهل اليمن ولا سيما أهل الجبال ، وقام أبناؤه والعلماء المعاصرون له فمن بعدهم بخدمة مذهبه ، واستخرجوا من نصوصه تخريجات مذهبية على طريقة علماء المذاهب الأربعة عند علماء السنة ، وظهرت مؤلفاته فى بلاد جيلان وديلمان ، وكان الاتصال بين اليمن وتلك الأقطار بالمراسلة

(١) راجع كتاب : « الحدائق الوردية فى ذكر أئمة الزيدية » للفقيه حسام الدين حميد الشهيد بن أحمد بن محمد بن أحمد المحلى الصنعانى ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٧٥ / تاريخ .

وغيرها من الطرق المعهودة للاتصال فى ذلك للتاريخ ، وقام بخدمة مؤلفاته الواصلة إلى تلك الديار جماعة من علماء الجبل والديلم ، منهم : الإمام المؤيد بالله أحمد ابن الحسين بن هارون الهارونى الآملى ، وصنوه الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين ، وخالهما أبو العباس الحسن ، وسلكوا معه مسلك الفقهاء المخرجين من نصوص الأئمة لمسائل الفقه ، وألفوا فى ذلك المؤلفات الحسان ، كشرح التجريد والتفريعات للمؤيد بالله ، والتحرير وشرحه للإمام أبى طالب ، وبهذا اقترن حكمه السياسى بمذهبه الفقهى ، وانطبع اليمن بطابعه ، واستقرت الدولة فيه على هذين الأساسين المرتكزين عليه .

وما زالت القبائل اليمنية ، ولا سيما صميمها قبيلة همْدان أنصار هذا البيت الهاشمى الكريم ، منذ خرج إليهم الإمام على بن أبى طالب ، وقال فى حقهم كما يروى :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهَمْدانَ ادخلوا بسلام

وما زالت هذه الدولة قائمة على تعاقب السنين ، وربما طغى تيار بعض الدول الغابرة فى بعض السنين على معظم البلاد اليمنية ، ثم يضمحل ويعود لهذه الدولة القرشية الهاشمية .

وها هو ذا الإمام الناصر لدين الله « أحمد بن يحيى » ، مثابرٌ على حفظ هذا القطر المبارك ، من أن تمتد إليه أيدى الاستعمار الغاشم ، سواء فى الناحية السياسية أو فى الناحية العلمية والدينية .

وفقه الله لإصلاح اليمن ، والأخذ بيده إلى الرقى والعمران والحياة الكريمة السعيدة .